أين يكتب المثقّف؟

ـ أنت صاحبي، وأنا حريص عليك.

ـ خير إن شاء الله!

ـ كلّ الخير، وحياتك، مُسْتَفَزّ؟

ـ المرّة الماضية، أنت صرعت رأسي بالواقعيّة والمرحليّة. والحمد لله أنّك بدأت تغيّر آراءك. خطوة جيّدة أنّك ضدّ غزّة/ أريحا.

ـ أنا اليوم لا أريد أنْ أبحث بالسّياسة. السّياسة شيء مقرف. سؤالي بصراحة هو التّالي: لماذا تعزل نفسك؟

ـ كيف يعني؟

ـ أنت تكتب في مجلاّت ـ لا تزعل منّي ـ ولكنّها مجلاّت الله سبحانه وتعالى لم يسمع بها. لا تفهمني خطأ. أنا أحترم أفكارك، وإن كنت لا أوافق على كثير منها. لكنْ أنت تكتب بمجلاّت لا تصل بمجموعها إلى أكثر من نسبة ضئيلة من المثقّفين النخبويّين، أو الذين يفكّرون أنّهم نخبويُّون.

ـ وأين المشكلة؟

ـ يا أخي، أنت تدّعي أنّك إنسان ثوري وتغييري وذو علاقة بالنّاس. ولكنّك لا تكتب إلاّ في مجلاّت ناصريّة ويساريّة معزولة عن النّاس وممنوعة في ٩٠٪ من البلدان. أنت لا تريد أن تغيّر مَنْ هم في مثل أفكارك. مضبوط؟

ـ لا تسألْ. كَمِّلْ حديثك لأعرف آخرته.

ـ يا أخي، اكتبْ في الجرائد اليوميّة والمجلاّت الأسبوعيّة المشهورة.

ـ أوّلاً، أنا لا أعرف كيف أكتب كلّ يوم مقالة، من دون أن أُكرِّر نفسي. أنا لست نابغة لكي أخترع كلّ يوم أو كلّ أسبوع كلاماً جديداً. أنا أحسد المحرِّرين الذين يستطيعون أن يكتبوا في إسبوع واحد عن البوسنة واليمن وفلسطين والأصوليّة ودور المثقّف وقانون الإعدام ومادونا..

ـ أنت تسخر، أم أنت جادّ؟

ـ هيك وهيك. الله سبحانه وتعالى أنعم على بعض النّاس، مثل «فريدريك جايمسن» و«ڤالتر بنيامين» و«طه حسين» بقدرة خارقة على الرؤية الموسوعيّة للأشياء، وعلى ربطها بعضها ببعض. ولكنّه حرم الآخرين من هذه النعمة.

ـ طيّب، ولماذا يكتب هؤلاء المحرومون؟

ـ أوّلاً هم يطمحون إلى أن ينخرطوا في جميع مجالات الواقع والثقافة؛ فالمثقّف يزهق كثيراً إنْ حَصَرَ نفسه في مجال اختصاصه. وجزء من المثقّفين يحبّ الادّعاء، ثانياً. وبعد ذلك، لا تنسَ المكافأة المادّيّة التي يأخذها الكتّاب عن كلّ مقالة يكتبونها في كلّ جريدة أو مجلّة.

ـ أين الغلط في هذا؟ الكتّاب هم أيضاً يحقّ لهم أن يعيشوا. أنتَ الله أنعم عليك بالمصاري، ولكن من حقّ الكتّاب الآخرين أن يعيشوا، ويعيشوا بكرامة أيضاً.

ـ أنت الآن تخرج عن الموضوع، وتستفزّني من جديد. على كلّ حال، أنا لا مانع لديّ من أن يعيشوا، شرط أن يعيشوا ـ كما قلتَ أنتَ ـ بكرامة. والمجلّات والجرائد النفطيّة أغرقت الكتّاب بالمصاري، فيعطون هذا ٥٠٠ دولار وذلك ألف دولار، وعلى مراجعة سخيفة لكِتاب (جيّد أو سخيف) ١٠٠ ـ ٣٠٠ دولار.

ـ أنت تهرب من المشكلة.

ـ لا. ولكنْ معك حقّ، ليست هذه هي المشكلة الحقيقيّة. المشكلة الحقيقيّة هي التي بدأنا بالكلام عنها. المجلّات والجرائد اليوم، بغالبيّتها السّاحقة، تابعة للأنظمة العربيّة. وأنا...

ـ ليكن الربّ معك!

ـ والله، لو تمكّنت الأنظمة من شراء الربّ نفسه ما قَصَّرَتْ! النّتيجة أنّ علينا أن نرجع لذلك النموذج المثالي بعض الشيء للمثقّف الوطني والثقافة الوطنيّة... نموذج رئيف خوري مثلاً. أين يكتب المثقّف. هذا هو السؤال الثقافي الأبرز اليوم. قُلْ لي أين تكتب أقُلْ لك مَنْ أنت.

ـ اسمح لي أن أقول لك إنّ هذه نظريّة خرائيّة بعض الشيء، مع احترامي الكامل لك.

ـ شكراً!

ـ هل تعرف لماذا؟ لأنّك تسقط، وربّما تُخَوِّن، عشرات المثقّفين الذين يكتبون في الصحف والمجلّات التي تسمّيها نفطيّة ورجعيّة و... ولكنّهم يكتبون بهدفٍ واضح، هو اختراق هذه المنابر الواسعة الانتشار لطرح آراء مخالفة للمؤسّسة العربيّة الحاكمة وللمنظومة الفكريّة السّائدة.

ـ كلام جميل. وأنت صرت تتكلّم مثل المثقّفين تماماً. وصلنا الآن لنقطة حسّاسة. وأنت لك وجهة

نظر تبنّاها عدد كبير من الكتّاب الذين يكتبون في جرائد النّفط، ممَّن لا أشكّ بوطنيّتهم ولا برغبتهم في التّغيير، كعزمي بشارة وحليم بركات وإدوارد سعيد. ولكنّ بعض هؤلاء الكتّاب أنفسهم يعترفون بأنَّ لعبتهم خطرة لأنَّها قد تُعطي شرعيّة لـ «الديموقراطيّة النفطيّة» كما أسماها واحد منهم في ندوةٍ عقدها في جامعة نيويورك مؤخَّراً.

ـ أنا معك، ولكنَّهم يقولون ما يريدون بغضّ النَّظر عن أين يكتبون!

ـ أنت أهبل. عفواً، أعتذر، ما كان قصدي إهانتك. ولكنْ أنت تعرف أنَّ هذه المجلّات والجرائد تحذف كلّ ما فيه هجوم على الأنظمة التي تدعمها وتموّلها. ثمَّ أنت تنسى الرقابة الذاتيّة التي يمارسها المؤلّف على نفسه حين يكتب في جريدة يعرف أنَّها موالية لهذا النظام أو ذاك، ويعرف أنَّها قد لا تدعوه إلى الكتابة فيها مجدَّداً فتحرمه أيضاً من مردود مالي يعتمد عليه أسبوعيّاً أو شهريّاً أو حتّى يوميّاً.

ـ وهذا ينطبق على جرائد كلّ الأنظمة ومجلّاتها.

ـ طبعاً. وحتّى لو كان هناك نظام أفضل من نظام على المستوى القومي، فإنَّ كيفيّة تعامل وسائل إعلام الأنظمة مع المثقّفين تتلخَّص في تدجينهم أو احتوائهم.

ـ وأعتقد أنَّ الهامش المخصَّص للرأي الآخر، أو لما يُسمَّى بـ «الرأي الآخر» في جريدة أو مجلّة تابعة أساساً لهذا النظام أو ذاك، سيغرق في بحر الرأي الأساسي الذي يطبع هذه الجريدة أو المجلّة.

ـ غريب أنت. كلّ مرّة أُناقشك تنتهي بالمزايدة عليّ!

ـ غير مهمّ. أنت لم تجبني على سؤال آخر. ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أَتَقَنْفَذ!

ـ شو؟

ـ سأتصرَّف مثل القنفذ. أحمي نفسي قدر الإمكان من التلوُّث، وأحمي أفكاري قدر المستطاع من المساومة. أعزل نفسي عن وسائل إعلام الأنظمة، ولا أكتب إلاَّ في الدوريّات التي أتَّفق معها؛ وبعضها يدفع مبالغ زهيدة بالمقارنة مع دوريّات الأنظمة، ولكنَّها تريح ضميري أيضاً؛ وهذا مكسب روحي.

ـ اسمح لي أن أقول إنَّ ما تفعله ليس قنفذة، بل حَمْرَنة. أنت تغلق مجالات كثيرة من الممكن أن تفيد منها وتفيد غيرك، وتترك السّاحة لمثقّفي الأنظمة وحدهم.

ـ أوّلاً أنا قلت إنّي لا أُخوِّن المثقّفين الوطنيّين الذين يتكتكون على دوريّات الأنظمة، وإنْ كنت أعتقد أنَّهم سيفشلون أو هم يتغابون أو يضحكون علينا. وثانياً أنا أعتقد أنَّ المثقّفين الوطنيّين والتقدميّين لو جمَّعوا أنفسهم في المنابر الوطنيّة والتقدميّة لكانوا أقدر على اختراق الواقع الثقافي من منابر الأنظمة، أو لكانت خَلَتْ معظم هذه المنابر من الثقافة أساساً!

ـ وإلى متى ستبقى قنفذاً؟

ـ هذا هو السُّؤال الكبير. الوضع الثقافي، ووضع الحرّيّات العامّة إلى تَراجُع... ومن الممكن بعد استشراء ظاهرة الثقافة التليفزيونيّة الاستهلاكيّة السّريعة أنْ يتحوَّل كلّ إنسان جدّي إلى حمار أو قنفذ.

ـ دَيْنَصور منقرض. ستكون من الدينصورات المنقرضة، وسأنادي ابن أختي الصَّغير ليتفرَّج عليك!